بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، ومِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ له، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢].﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١].﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ : فَمَا أَنْ أرسلَ اللهُ ربُّ العالمين رسولَهُ الكريم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ هِدَايَةً ونُورًا حتى جَاءَهُ الإيذاءُ مِن كلِّ صَوْب، وطَالَ الإيذاءُ فِيمَنْ طَالَ مُحمدًا صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ إِلَّا أنهُ لَم يَخْلُص إليه شيءٌ يكرهُهُ حتى ماتَ عمُّهُ أبو طالب على رَأْسِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ مِن مبعثِ الرسولِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وكانَ الأذى لمَّا حلَّ بساحةِ الأصحاب – عليهم الرضوان –، أَمَرَهُم النبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أنْ يُهَاجِرُوا إلى الحَبَشَة. وأخبرَهُم أنَّ بها مَلِكًا عادلًا لا يُظلَمُ عنده أحد . فهاجرَ إلى الحبشةِ في سبيلِ اللهِ ربِّ العالمين مَن هاجرَ، ثُمَّ سَعَت قريشٌ سِعَايَتَهَا مِن أجلِ أنْ تَرُدَّ المُهاجرينَ مِن الحبشةِ إلى مَكَّةَ مِن أجلِ فتنتِهم وتعذيبِهم ؛ فثبَّتَ اللهُ ربُّ العالمين النَّجاشيَّ – طيَّبَ اللهُ ربُّ العالمين ثَرَاهُ وأَحْسَنَ في الجنَّةِ مَثْوَاهُ –، إذ أسلمَ بعدُ قلبُهُ وزمامُهُ للهِ ربِّ العالمين وتَبِعَ النبيَّ الأمينَ ﷺ ، فثبَّتَهُ اللهُ ربُّ العالمين؛ فلَم تَبْلُغ قُريشٌ مِن ذلك مَبْلَغًا، وسَمِعَ المُهَاجِرُونَ إلى الحبشةِ أنَّ قريشًا قد فَاءَت إلى ظِلِّ العقلِ وأنها كَفَّت الأذى والإيذاءَ عن مُحَمَّدٍ وحزبِهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ، فعادَ مَن عاد مخدوعًا بهذا البرقِ الخُلَّبِ الذي لا مَطَرَ فيه ولا غيْث، حتى إذا ما كانوا على مَشَارِفِ مَكَّةَ؛ عَلِموا عِلْمَ اليقينِ أنَّ الأذى قد ازدادَ جدًّا، فعادَ إلى الحبشةِ مَن عادَ ودَخَلَ إلى مكةَ مَن دَخَل، وكان فيمَن هاجرَ إلى اللهِ ربِّ العالمينَ فِرارًا بدينِهِ مِن الأذى والاضطهَاد أبو سَلَمَةَ بنُ عبدِ الأسدِ وزوْجُهُ أُمُّ سَلَمَة هندُ بنتُ زادِ الراكبِ المَخزومي، وكان أبوها من الأجوادِ المشهورين في الجاهليةِ حتى لُقِّبَ بزادِ الراكب.

هاجرَ أبو سَلَمَة وأمُّ سَلَمَة إلى الحبشةِ ثم عَادَا فيمَن عادَ، وزادت الفتنةُ وزادَ الاضطهاد حتى كانت بيعةُ العقبةِ الثانية، وأَذِنَ اللهُ ربُّ العالمين للنبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بالقتال ، فأنزل اللهُ ربُّ العالمين قولَه: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

فَأَذِنَ اللهُ ربُّ العالمين بهذا البلاغِ الشافي الكافي لرسولِهِ ﷺ بالقِتَال، وأُسْقِطَ في يدِ قُريش؛ إذ كان النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بعد بيعةِ العقبةِ الثانية قد قالَ لأصحابِهِ : « أُريتُ دارَ هجرتكم، أُريتُ دارًا سَبِخَةً بين لابتيْن » والأرضُ السَّبِخَةُ : هي مدينةُ النبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بما يَعْلُوها مِن الملوحةِ، فليس بها من الشَّجَرِ إلَّا القليل وهو شجرُ النَّخل، ولكنَّها لا تُنبِتُ فيما عدا ذلك نباتًا إلَّا القليل النادر. بين لابتيْن : أي بين الحَرَّتيْن، والحَرَّةُ أرضٌ ذاتُ حجارةٍ سُود كأنما احتُرقت بالنَّار. فهاجرَ بأمرِ اللهِ ربِّ العالمين ثمَّ بأَمْرِ النبيِّ الكريم ﷺ إلى مدينةِ النبيِّ ﷺ مَن هاجرَ، وكان أوَّلَ مَن هاجرَ إلى مدينةِ النبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ مُصعبُ بنُ عُمَيْر وابنُ أمِّ مكتوم، فكانا يُقرآنِ الناسَ القرآن، ثُمَّ جَاءَ بلالٌ وسعدٌ وعمارُ بنُ ياسرٍ –رضي الله عنهم أجمعين–، ثُمَّ جاء عُمَرُ بن الخَطاب في عشرينَ من أصحابِ النبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ. وأرادَ أبو سَلمة أنْ يُهاجرَ بزَوْجِهِ أمِّ سَلَمَةَ –رضي الله عنه وعنها– ومعهما ولدُهُما سَلَمَة–رضي الله عنه وأرضاه–،أرادَ أبو سلمةَ أنْ يُهاجرَ بزَوْجِهِ وولدِهِ إلى مهَاجِرِ النبيِّ ﷺ ، وَخَرَجَ بها على بَعيرٍ يقودُهُ، فما هو إلَّا أنْ رآها بعضُ قومِها من بني مخزوم؛ فَتَسَامَعَ بها القومُ وجاءوا إلى أبي سَلمةَ فقالوا له: يا هذا؛ أمَّا نفسُكَ فَقَد غَلَبْتَنَا عليها، وأمَّا صاحبتُنَا؛ فواللهِ لا ندَعُهَا لك تسيرُ بها في بلدانِ اللهِ ربِّ العالمين مُشَرِّدَةً طَرِيدة، فَحَجَزُوا أمَّ سَلمة، وتسامعَ قومُ أبي سَلمةَ ﷺ مِن بني عبد الأسد بمَا كان من شأنِ بني مخزوم وأنهم حَجَزُوا سَلمةَ وأُمَّهُ، فجاءوا إلى بني مخزوم أرادوا أنْ يأخذوا سَلَمَةَ منهم ، فقالوا: أمَّا ابنتَكم وصاحبتَكُم فدُونَكم لا نُرِيدُها، وأمَّا ولدُنَا؛ فإنه بَضْعَةٌ منَّا ولا بُدَّ أنْ نَأْخَذَه. وتجاذبَ القومُ سلمةَ بن أُمِّ سلمةَ – رضي الله عنه وعنها– حتى خلعوا يدَهُ كما قالت أُمُّ سَلمة – رضوان الله عليها–، وَأَخَذَهُ قومُ أبيه من بني عبدِ الأسد واحتُجِزَ عندَهُم، وأمَّا هي فكانت تخرجُ إلى الأبْطَحِ – إلى المكانِ الذي وَقَعَت فيه الواقعة–؛ لكي تَنْدُبَ حظًّا عاثِرًا جدًّا حلَّ بساحتِها ونزلَ على رأسِها –رضوان الله عليها–.

فأمَّا زَوْجُهَا فإنه سَارَ مُهاجِرًا إلى اللهِ ربِّ العالمين، وأمَّا ابنُهَا فَقَدْ أَخَذَهُ قومُ أبيه، فهي لا تَخْلُصُ إليه ولا يَخْلُصُ إليها، وأمَّا هي فمُحتجزَةٌ في مكةَ لا تستطيعُ مِن الكفارِ فِكاكًا ولا فِرارًا، وظلَّت عامًا كاملًا تخرجُ إلى الأبْطَحِ، تجلسُ في ذلك الموضعِ الذي وَقَعَت لَهَا فيه الواقعة؛ لكي تَنْدُبَ حظًّا عاثِرًا جدًّا ضارِعةً إلى اللهِ ربِّ العالمين أنْ يُفَرِّجَ كَرْبَها مِن الصباحِ إلى المساءِ جالسةً على صخرةٍ باكيةً حتى رَقَّ لها رجُلٌ من قومِها بعدما ظَلَّت سنةً كاملةً على ذلك. فقال : أَلَا خَلَّيْتُم بين هذه المسكينةِ وبين زوجِهَا وولدِهَا. فقالوا : إنْ شاءت أنْ تخرجَ مهاجرةً؛ فَعَلت، فلنْ نَحُولَ بينها وبين ذلك . وَخَرَجَت وَتَوَسَّطَ العقلاءُ عند بني عبد الأسد مِن قوم أبي سلمةَ، فَرُدَّ سلمةُ إلى أُمِّهِ، وخرجت هي على بعيرٍ ومعها ولدُهَا في حِجرها وليس لها مِن حمايةٍ إلَّا حمايةُ اللهِ ربِّ العالمين وَحْدَهُ، وَلَقِيَهَا عند التنعيم – وهو موضعٌ معروفٌ الآن لكلِّ مَن حجَّ أو اعتمر على بُعْدِ ثلاثةِ أميالٍ مِن بلدِ اللهِ الحرام، لَقِيَهَا عثمانُ بنُ مظعونٍ – رضوان الله عليه – وكان مشركًا لم يُسلِم بعدُ، لقيَهَا؛ فقال: إلى أين يا بنتَ زادِ الراكبِ ؟ فقالت: خرجتُ مُهَاجِرَةً إلى اللهِ ورسولِهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ .فقال : ومِثْلُكِ تخرجُ وَحْدَهَا.فصَحِبَهَا عثمان بن مظعونٍ –رضوان الله عليه– حتى إذا ما كانت هناك عند قُبَاءٍ بقريتِها، قال: إنَّ زَوْجَكِ بهذه القريةِ، فَدُونَكِ، ثُمَّ عَادَ رَاجِعًا إلى مَكَّةَ المُكَرَّمة –زَادَهَا اللهُ ربُّ العالمين كَرَمًا وَتَشْرِيفًا–...

..لم يخرُجْ رسولُ اللهِ ﷺ عندما أُذِنَ له في الهجرة أوَّلَ مَن خرج، بل تخلَّفَ في مَكَّةَ ﷺ وقدَّمَ الأصحابَ بين يديه، فهاجَرُوا جميعًا إلَّا مَن قَضَى اللهُ ربُّ العالمين بِفِتْنَتِهِ؛ فَثَبَتَ، أو انحرفَ عن المنهجِ السَّويِّ –نسألُ اللهَ السلامةَ والعافية–. وأمَّا الأمرُ الثاني: فإنَّ الرسولَ ﷺ اختارَ اللهُ ربُّ العالمين له في الهجرةِ صاحبًا وهو أبو بكرٍ –رضوان الله عليه–، وكان يستأذنُ النبيَّ في أنْ يُهاجرَ إلى اللهِ ورسولِه، فيقولُ له النبيُّ ﷺ : « يا أبا بكر على رِسْلِكَ لعلَّ اللهَ يجعلُ لك صَاحِبًا ».فكان يقولُ: الصُّحبة الصُّحبةَ يا رسول الله، يرجو أنْ يكونَ صاحبَ النبيِّ في هِجْرَتِهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وابتاعَ أبو بكرٍ –رضوان الله عليه– راحلتيْن، فعَلَفَهُما وَرَق السَّمُر ثمَّ إنه جعلَ ذلك عنده في مكانٍ حدَّدَهُ أربعةُ أشهُرٍ سواءٍ حتى أَذِنَ اللهُ ربُّ العالمين لنبيِّهِ بالخروجِ مُهاجرًا إلى مهاجرِهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ. وأمَّا أمْرُ نبيِّا صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ في ليلةِ هِجْرتِهِ؛ فَأَمْرٌ مؤيَّدٌ بالوحيِ مِن السماءِ مِن عند اللهِ ربِّ العالمين، يَظَلُّ عليٌّ –رضوان الله عليه– في فِرَاشِ النبي ﷺ ، وقد تسَجَّى بِبُرْدِهِ الحضرميِّ الأخضر، والرسول ليس في بيتِهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، بَل ذَهَبَ في الهاجِرَةِ وكانت الهجرةُ في آخرِ شهرٍ مِن أشهُرِ الصيفِ في السنةِ الثالثة عشرة مِن مبعثِ الرسول ﷺ .

فذهبَ في وقتِ القيلولةِ في الهاجرةِ في وقتٍ لو وَضَعْتَ فيه لَحْمًا نيئًا على رِمالِ الصحراءِ المُحْرِقَةِ لأَنْضَجَتْهُ، ذهبَ إلى بيتِ أبي بكر في ساعةٍ لم يكُن يأتي فيها أبا بكر–رضوان الله عليه–، يقولُ أبو بكرٍ –رضوان الله عليه–: ما أَرَى النبيَّ ﷺ قد أتى في هذا الوقتِ إلَّا لحَدَثٍ حَدَث. فَلَمَّا دخلَ النبيُّ ﷺ ؛ أعلمَهُ بأنَّ الإذنَ بالهجرةِ قد جاءَهُ مِن اللهِ ربِّ العالمين. فقال: يا رسول الله الصُّحبةَ الصُّحبة. قال له النبيُّ ﷺ: « قد جعلَ اللهُ لك صاحبًا يا أبا بكر ».وخرجَ الرسولُ في وقتِ الهاجرةِ مِن خَوْخَةٍ في بيتِ أبي بكر –وهي كوَّةٌ نافذةٌ في الجدارِ الخلفيِّ لبيتِ أبي بكر–، وإذا كانت هناك رقابةٌ مِن استخباراتِ قُريش تَرْقُبُ مُحَمَّدًا ﷺ، وكانوا قد بَيَّتُوا قَتْلَهُ في الليلةِ التي هاجرَ فيها ﷺ، إذا كانت أعيُنُ الرُّقباءِ تَرْقُبُهُ ؛ فإنها تتطلعُ إلى بابِ بيتِ أبي بكر، وأمَّا الرسولُ ﷺ فيخرُجُ مع أبي بكرٍ –رضوان الله عليه– مِن خَوْخَةٍ في الجدارِ الخَلْفِيِّ لبيتِ أبي بكر –رضوان الله عليه–.وأمَّا النبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ فيسيرُ صَوْبَ الجنوب، مع أنهم يعلمون أنَّ طريقَ الشَّمالِ مُؤَدٍّ إلى المدينةِ التي يُهاجِرُ إليها صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، نَزَلَ النبيُّ ﷺ جنوبًا إلى جبلِ ثَوْر ودخلَ الغارَ مع صاحبِهِ ﷺ في غارِ ثَوْرٍ مع أبي بكرٍ –رضوان الله عليه–، فَدَخَلَ أبو بكرٍ بين يدي النبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وقال: يا رسول الله على رِسْلِكَ حتى أستبرئَ لك الغار، ودخلَ ففتَحَ الغار، ومزَّقَ رِدَائَهُ وجعلَهُ في الشقوقِ حذَرًا مِن أنْ يكونَ بها شيءٌ مِن الهَوَامِّ فيؤذِيَ ذلك رسولَ اللهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وَدَخَلَ مع النبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ. مِن جودةِ الإعدادِ وسلامةِ الاستعدادِ أنْ جعلَ النبيُّ ﷺ عبد الله بن أبي بكرٍ ﷺ عَيْنًا على قريش يتلصصُ عليهم في الأصباحِ، فإذا ما كان المساء أخذَ ما وضعَ عليه سَمْعَهُ ويدَهُ وسَمْعَ قلبِهِ وذهبَ إلى الرسولِ ﷺ فأخبرَهُ، والنبيُّ مع صاحبِهِ في الغارِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ. وأمَّا تأمينُ أَمْرِ المَؤونة فَقَدْ جُعِلَ إلى أسماءَ بنتِ أبي بكر –رضي الله عنها وعن أبيها–، وانظُر إلى توزيعِ الأدوارِ ها هنا، لم يجعل النبيُّ ﷺ أَمْرَ الزادِ إلى عبد الله بن أبي بكر؛ لأنه لو حَمَلَ زادًا في إحدى يديْهِ أو كلتيْهِما ثمَّ خَرَجَ إلى أيِّ سبيل؛ لَتبِعتهُ أعيُنُ الرُّقباء وتَبِعَتْهُ بعد ذلك أقدامُهُم ولعَلِموا مَوْضِعَ النبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، فَنَحَّى عنه النبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ذلك وَجَعَلَهُ مَنوطًا بأسماءَ بنتِ أبي بكر، والأُنثى والمرأةُ –وكانت أسماءُ حَامِلًا رضوان الله عليها– تسيرُ خمسةَ أميالٍ كاملات إلى غارِ ثَوْرٍ في جبلِ ثَوْر –وهو جبلٌ شَاهِقٌ شَهْمٌ صُلْبٌ مُتَجَهِم حجارتُهُ مَسنونةٌ عنيفةٌ حادَّةٌ حتى لقد حَفِيَت قَدَمَا رسولِ اللهِ–، المرأةُ إذا حَمَلَت زَادًا وطعامًا ومتاعًا لا يُلتفتُ إليها، كانت أسماءُ تؤمِّنُ أَمْرَ الزادِ وكان عبد اللهِ بنُ أبي بكر يأتي للنبيِّ باستخباراتِ قُريش، ولم يجعل رسولُ الله ﷺ أَمْرَ الاستخباراتِ مَوكولًا بأسماء؛ لأنَّ المرأةَ مهما بلغَ عقلُهَا لا يُمكنُ أنْ يكونَ واعيًا حافظًا كالرَّجُلِ الحاذقِ اللبيب؛ هذه واحدة .

وثانية: أنَّ أسماء لا تستطيعُ وهي امرأة أنْ تدخلَ في منتدياتِ قريش ولا أنْ تدخلَ في مجامعِ الرجال لتتفقدَ الأخبار ثم تذهبَ بها إلى رسولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ. كذلك وزَّعَ النبيُّ الأدوار صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وأمْرٌ آخر لم يعْفلهُ رسولُ الله –وحاشا لله أن يصنع– صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وهو أنَّ عبدَ الله بن أبي بكر ﷺ وأسماءَ بنتَ أبي بكرٍ ﷺ إذا ما سارا إلى الغارِ عند رسولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ كان للأقدام آثارٌ على الرمال، فرُبما أتى القَافَةُ مِن تُبَّاعِ الأثرِ فدلُّوا قريشًا على موضعِ رسولِ الله ﷺ اقتفاءً للآثارِ على الرمال.

فكان عامر بن فُهيْرة مولَى أبي بكرٍ –رضي الله عنه وأرضاه– على غَنَمٍ له، إذا ما جاءَ عبد الله وجاءت أسماء وَلَدَا أبي بكرٍ –رضي الله عنهم أجمعين–، جاءَ بِغَنَمِهِ فَسَارَ على طريقِهما فعَفَّ على الآثار، ثم يبيتُ بأغنامِهِ عند الغارِ عند رسولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ فيحلبُ لهم فيشربونَ هنيئًا مريئًا –صلى الله على مُحَمَّدٍ ورضي الله عن صاحبِهِ في الغار رضوانًا كبيرًا–، فإذا ما كان الصباحُ وقد لاحَ بتباشيرِه ؛ عاد عامرُ بن فُهيرة إلى قُريشٍ كأنما أصبحَ فيهم وكذلكم كان استعدادُ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.

وأمرٌ آخر لم يَغِب عن رسولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ –وحاشا لله أنْ يغيبَ–؛ ذلك أنه استغلَّ الخبرةَ التي كانت عند المشركين، فإنَّ أبا بكر استأجرَ ابنَ أُرَيْقِط ليكونَ دليلًا هاديًا، وكان رجُلًا مُشركًا ولكنَّهُ كان عليمًا بمجاهلِ الصحراوات، فأتاهُم على رأسِ ثلاثةِ أيام مِن مَبيتِهم في الغارِ –صلى الله على مُحَمَّدٍ ورضي الله ربُّ العالمين عن صاحبِهِ–، جاءَهُم فأمعنَ بالسَّيرِ تجاهَ الجنوب ثُمَّ استدارَ غربًا حتى إذا كان قريبًا مِن ساحلِ البحرِ الأحمر؛ سَلَكَ طريقًا غيرَ مطروقةٍ أبدًا –هي نادرةٌ جدًّا ما يطرُقُهَا طَارِقٌ–، وسارَ مُصْعِدًا صَوْبَ الشَّمال حتى قَدُمَ مدينةَ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ. دخلَ النبيُّ ﷺ المدينةَ وحَلَّ بقُباءَ في بني عمرو بن عَوْفٍ في شهرِ ربيعِ الأوَّل في السنةِ الثالثةَ عشرةَ مِن مبعثِهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وخرجَ جواري الأنصار ورجالُ الأنصار ونساءُ الأنصار، حتى اليهود في وقتِ قيلولةٍ شديدةِ الحَرِّ فيها واحةُ النبيِّ بِظِلٍّ وبَرْد، وقد نزلَ نُزولًا بالسكينةِ كلِّها على مدينتِهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، فلمَّا أنْ رآهُ يهوديٌّ وكان على حِصنٍ مِن حصونِهم، قال: يا بَنِي قَيْلة؛ هذا جَدُّكم الذي تنتظرون، هذا عظيمُكم الذي تنتظرون، فَخَرَجَت المدينةُ عن بَكْرةِ أبيها للقاءِ الحبيبِ المحبوبِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ. فأمَّا الجواري مِن ولائدِ الأنصار فَأَخَذْنَ الدُّفوف يضربنَ ويُغنين فَرَحًا بمَقدمِ النبيِّ الأمين: نحن جوارٍ مِن بني الأنصار حَبَّذَا مُحَمَّدٌ مِن جار صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ. ولَم يَقُلن ما هو مشهورٌ بين عامةِ المسلمين وخاصتهم : طَلَعَ البدرُ علينا مِن ثَنِيَّات الوداع .

وَجَبَ الشكرُ علينا ما دعا للهِ داع؛ لأنَّ ثنيَّاتِ الوداعِ إنما هي في قِبَلِ الشام صَوْبَ المدينةِ مِن أعلى مِن جهةِ القادمِ مِن الشام، وأمَّا ثَنِيَّاتُ الوداعِ والغناءُ الذي كان مِن جواري الأنصارِ فرحًا بقدومِ النبيِّ ؛ فكان عند عودتِهِ ﷺ مِن غزوةِ تبوك، وأمَّا في الهجرةِ فَكُنَّ يُغنينَ بين يديْهِ قائلات: نحن جوارٍ مِن بني الأنصار حبَّذا مُحَمَّدٌ مِن جار صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ. نزلَ النبيُّ قُباءَ وَبَنَى المسجد وظلَّ فيهم إلى يوم الجُمُعة، ثُمَّ رَكِبَ ناقتَهُ القَصْوَاءِ وسارَ إلى بني عَوْفِ بن سالم، فَوَجَبَت عليه فيهم الجُمُعة، فنزلَ فصلَّى هنالكَ الجُمُعة ولم يَكن مَسْجِدُهُ قد أُسِّسَ بعدُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، ثُمَّ بُعِثَت الناقةُ مِن مَبرَكِها بعد الصلاة، والقومُ جميعًا يتدافعون: إلينا يا رسول الله، إلينا يا رسولَ الله، وأكْرِم بك مِن جارٍ يا رسولَ الله. كلُّهُم يريدُ أنْ يحظَى بشرفِ نزولِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وأمَّا الحكمةُ وأمَّا الفطنة –دَعْكَ مِن هذا–، وأمَّا النُّبوَّةُ وأمَّا الصدقُ وأمَّا الإخلاصُ وأمَّا الوفاءُ فيأتي إلى أنْ يُطيِّبَ قلوبَ الجميع؛ ليعلمَ الجَمْعُ أنَّ الأمرَ للهِ ربِّ العالمين وحدَهُ، وأنَّ شَرَفَ نزولِ المصطفى عند أحدٍ من هؤلاء الأكرامِ الأكارمِ الأطهارِ الأخيارِ إنما هو بتوقيفٍ مِن اللهِ ربِّ العالمين، لا بأمرٍ مِن مُحَمَّدٍ، مع أنَّ أمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ لا يكونُ إلَّا بوحيٍ مِن اللهِ ربِّ العالمين، قال: « دَعُوا ناقتي وخَلُّوا سبيلَها فإنها مأمورة ».وانطلقت الناقةُ وعليها خَيْرُ رَاكِب، خَيْرُ مَن مَسَّ الحصى قطُّ وانطلقت، كلما مرَّ على قومٍ بحيِّهِم: إلينا يا رسول الله، إلى المَنَعَةِ والغَلَبَةِ وحُسْنِ الجِوار، يقولُ: « خَلُّوا سبيلَ ناقتي فإنها مأمورة »، فتنطلقُ حتى إذا كان عند أحوالِ أبيه مِن بني عَديِّ بن النَّجار، خَرَجُوا إليه بخؤولتِهم لأبيه، يقولون: هَلُمَّ إلى أخوالِكَ يا رسول الله، إنَّ لنا عندك لَرَحِمًا مصونة،.. وانزل علينا يا أكرمَ جار، فَسَرَّح النبيُّ في الحيِّ بصرَهُ وعاد سبعةً وأربعين عامًا عندما أتت به أُمُّهِ وهو في السادسةِ مِن عُمُرِهِ بعد موتِ أبيه لتُزيرَهُ قبرَ أبيه بالمدينةِ عند أخوالِهِ مِن بني عَديِّ بن النَّجار، ولَعِبَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ في سَاحَةِ خؤولتِهِ في مَرَاتعِ الشبابِ وفي مواطنِ الصِّبا مع لِدَاتِهِ مِن خؤولةِ أبيه مِن بني عَديِّ بن النَّجار منذُ سبعةٍ وأربعينَ عامًا.

النبيُّ الآن على ناقتِهِ القصواء يقول: « خَلُّوا سبيلَ ناقتي فإنها مأمورة »، والدموعُ تقطُرُ مِن عينيْهِ إذ يذكرُ أُمَّهُ عندما جَاءَت به منذ نصفِ قرنٍ مِن الزمان لتُزيرَهُ قبرَ أبيه، فَبَكَت عند القبرِ ما بَكَت، ثُمَّ أَخَذَت بيَدِ وليدِهَا صبيِّهَا مُحَمَّد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، يتيمُ الأبِ، في السادسةِ مِن عُمُرِه، وأرادت أنْ تعودَ به إلى مكةَ إلى آلِ أبيه، فلمَّا أنْ كانت بالصحراءِ بالبادية بين مكةَ والمدينة جاءها أَجَلُهَا، وإنَّ الرسولَ ﷺ ليتخطى بصرُهُ يومَ الهجرةِ نِصْفَ قرنٍ مِن الزمان ليَرَى منظرَ المُحتضرة بين يَدَيْهِ وَمَا مَعَهُ مِن أَحَدٍ إلَّا أَمَتُهُ أُمُّ أَيْمَن بَرَكَة وَقَد أَسْنَدَت مولاتَها إلى صدرِها.

وسَمْعُ الزمان يأتي إلى سَمْعِ النبيِّ ﷺ يومَ الهجرةِ عندما نَظَرَ إلى الساحةِ عند خؤولةِ أبيه، يأتي سَمْعُ الزمانِ إلى سَمْعِ النبيِّ بحَشْرَجةِ أُمِّهِ المُحتضَرَةِ وكيف أنها فاضت روحُهَا بين يديْه، ثُمَّ حملتْها أَمَتُهَا ومولاتُهَا إلى الأبواءِ بقريةٍ بين يثربَ عندما كان ذلك اسمُهَا، وبينها وبين مكةَ ما بينها، فَلُفِتَت بالأبواءِ وعادت بيدِ النبيِّ مُضاعَفَ اليُتْم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.واليومَ يعود ﷺ على ناقتِهِ: « خَلُّوا سبيلَها يا خؤولةَ أبي فإنها مأمورة »، وخَلُّوا سَبِيلَهَا وخرجت فذهبت إلى المِرْبَدِ وكان لغُلامَيْن يتيمَيْن بالمدينة، فَبَرَكَت ثمَّ قامت فانبعثت ثمَّ أعادت نظرَهَا مُولِيَّةً فعادت شيئًا؛ فَبَرَكَت في مَبرَكِهَا الأول، فنزلَ النبيُّ ﷺ، ووُضِعَ رَحْلُ ناقتِهِ فحملَهُ أبو أيوب إلى دارِهِ مُسرعًا، والقومُ يقولون: إلينا يا رسول الله حتى نبنيَ لك بيتًا، فيقول النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: « المرءُ مع رَحْلِهِ ». فَنَزَلَ على أبي أيوبٍ الأنصاريِّ، وكان المَوْضِعُ الذي بَرَكَت فيه الناقةُ بأمْرِ اللهِ ربِّ العالمين هو الموضعُ الذي يهفو إليه قلبُ كلِّ مسلم اليوم؛ هو موضعُ مسجدِ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، فَبُنِيَ له فيه المسجد وَشَارَكَ في حَمْلِ التراب على عاتقِهِ، لئن قَعَدْنَا والنبيُّ يعملُ لذاك منَّا العملُ المُضَلَّلُ، « اللهم ارحم الأنصارَ والمُهاجرة..اللهم ارحم الأنصارَ والمُهاجرة » يقولُهَا النبيُّ ﷺ مُشاركًا للأنصارِ والمُهاجرين في العملِ في الحفرِ لأساسِ مسجدِ النبيِّ الكريم ﷺ. ثم بُنِيَت حُجُرات رسولِ الله ﷺ، ما وصْفُهَا ؟ يقولُ الحَسَنُ السِّبطُ بنُ عليِّ بن الزهراء – سِبطُ النبيِّ ﷺ –: «كُنْتُ أدخلُ أبياتَ رسولِ الله ﷺ وأنا غلامٌ مُراهق، فتطولُ يدي سَقْفَ بيتِ رسولِ الله ﷺ، فَأمَّا بَعْضُ حُجُرات الرسول: فحجارةٌ بعضُها فوقَ بعضٍ وسقفُهَا مِن جَريد ولا شيء عليها، وأمَّا حُجرةُ حُجرةُ عائشة: فَجُدُرُهَا مِن جَريدٍ مُطَيَّن وسَقْفُهَا مِن جَريدٍ لا شيء عليه، وعلى بابِهَا سِتْرٌ مَرخيٌّ هو بابُ بيتِ رسولِ الله ﷺ الذي بَنَى فيه على عائشة –رضوان الله عليها–، وأمَّا أثاثُ بيتِ رسولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: فَشُدَّت أعوادٌ وجُعِلَ عليها حِبالٌ مِن لِيفٍ وطُرِحَ عليها فِراشٌ مِن أَدَم –أي: مِن جِلْدٍ– حَشْوهُ ليف، ليس بين الفراشِ وبين الأرضِ إلَّا الحصير »، فهذا بيتُ رسولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.وأمَّا القصورُ في الشَّمَال –قصورُ كِسْرَى وقَيْصر وأمراءِ غسَّان– يرتعونَ في قصورِهِ وكذلك في الحِيرَةِ وفي مِصر، وفي الجنوبِ في صنعاء في اليمن، فأمَّا القصورُ فآياتٌ مِن آياتِ المِعْمَارِ –حدِّث عنه ولا حرج–، وأمَّا الأثاث فباذخٌ باذخٌ باذخ لا يَصِفُ العقلُ توهُّمَ بعض ما كان عليه، وأمَّا قبرُ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ الذي هو اليوم في حُجْرةِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ فحُجرتُهُ قَبْرُهُ وَقَبْرُهُ حُجرتُهُ وأثاثُ بيتِهِ ما قد وَصَفْتُ وأمْرُ نبيِّك إلى اللهِ ربِّ العالمين الذي يحفظُهُ وَيَرْعَاهُ، فأمَّا الأضواء فَلَم تخطف شيئًا مِن أضواءِ النبوة مِن هذا البيتِ المتواضع –بيتِ رسولِ الله ﷺ –، فلمَّا طلعَت شَمْسُهُ ؛ كُسِفَت كلُّ الأنوار وأُطفِئت كلُّ الشموع وأضاءت شمسُ الرسولُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.اللهم صلى وسلم وبارك على مُحَمَّدٍ صلاةً وسلامًا دائمَيْن مُتلازمَيْن إلى يومِ الدين.أقولُ قولي هذا وأستغفرُ الله العظيمَ لي ولكم.

بحمد الله

دُرُوسٌ مِنَ الهِجْرَة

فضيلة الشيخ الدكتور

أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان